جامعة الأزهر
كلية أصول الدين – القاهرة
قسم العقيدة والفلسفة

الصابئة المندائية
تاريخها وعقيدتها
وموقف الإسلام منها

بقلم

د/ جمال محمد منصور
المدرس بقسم العقيدة والفلسفة

تمهيد

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد ﷺ المبعوث رحمة للعالمين.

وبعد،

فهذا بحث مختصر يشتمل على وريقات معدودة يبين طائفة الصابئة أصلهم وتاريخ وعقائدهم وبخاصة الطائفة الموجودة منهم اليوم والذين يسمون بالصابئة المندائية.

وتجد أن العلماء قد اختلفوا اختلافاً كبيراً فى شأن هذه الطائفة "الصابئة عموماً".

كما نجد أن القرآن الكريم أشار إليهم أكثر من مرة فى القرآن الكريم منها على سبيل المثال قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ (الحج: من الآية١٧)

وقال فى آية أخرى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ وَالنَّصَارَى﴾ (المائدة: من الآية٦٩)

وقال فى آية أخرى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ﴾ (البقرة: من الآية٦٢)

فمع ذكر القرآن الكريم لهذه الطائفة نجد أن العلماء قد اختلفوا فى شأن هذه الطائفة فمنهم من يرى أنهم قوم من أهل الكتاب ومنهم من يذهب إلى أنهم قوم يعبدون الملائكة ومنهم من يرى أنهم عبدة كواكب ومنهم من قال إنهم حنفاء العرب ومنهم من يزعم أنهم قوم لا دين لهم.

وقد اختلفوا أيضاً فى نسبتهم هل ينسبون؟ إلى صابئ أم إلى إدريس عليه السلام أم هم أتباع يحيى عليه السلام أم أنهم ينسبون إلى الفيلسوف الهندى "بوداسف".

ولقد أردت فى هذا البحث القصير أن أعطى فكرة عن هذه الطائفة وعقائدهم المختلفة وبيان موقف الإسلام منها.

والله المستعان

معنى كلمة صابئة

اختلف الباحثون فى أصل كلمة "صائبة" وذلك على عدة معان:

فهى تعنى كما جاءت فى قواميس اللغة الخروج من دين إلى دين[١] ونجد أن هذا المعنى قد ذهب إليه معظم المتكلمين والمفسرين إذ يرى الإمام الزمخشرى :أن الصابئين من صبأ إذا خرج من الدين[٢] وإلى هذا المعنى ذهب الإمام البيضاوى فيذكر أن معنى كلمة صبأ أى مال وأنهم مالوا عن سائر الأديان إلى دينهم أو من الحق إلى الباطل[٣] ويرى "الشهرستانى" أن المعنى اللغوى لكلمة الصابئين يعنى الزيغ والميل عن سنن الحق ففى اللغة صبأ الرجل إذا زاغ ومال فيحكم ميل هؤلاء عن سنن الحق وزيغهم عن نهج الأنبياء قيل لهم الصابئة ويضيف "الإمام الشهرستانى" معنى آخر فيقول: "وقد يقال صبأ الرجل إذا عشق وهوى وهم يقولون هو الانحلال عن قيد الرجال"[٤].

وإلى هذا المعنى ذهب ابن الجوزى حيث قال إن معنى كلمة "الصابئين" من قولهم صبأت إذا خرجت من شئ إلى شئ وصبأت النجوم إذا خرجت والصابئون هم الخارجون من دين إلى دين[٥].

كما نجد أن بعض العلماء ذهب إلى أن كلمة "صابئة" من صبأ وهى كلمة سريانية ومعناها الغسل والوضوء[٦].

ويذكر ابن النديم معنى آخر لكلمة الصابئة وهو المغتسلة فقال : "بأن هناك بنواحى البطائح صابئة يقولون بالاغتسال ويغسلون جميع ما يأكلونه"[٧].

---

(١) راجع على سبيل المثال القاموس المحيط للفيروز آبادى، جـ١، ص ٢٠، ٢٢.
(٢) راجع الكشاف للزمخشرى، جـ١، ص ٢٨٥.
(٣) راجع البيضاوى فى أنواء التنزيل، جـ١، ص ٦٠.
(٤) راجع الشهرستانى، الملل والنحل، جـ٢، ص ٦، ط ثانية نشر الأنجلو المصرية.
(٥) راجع ابن الجوزى - تلبيس ايليس، ص ٧٤.
(٦) راجع عبد الحميد بكر كتاب مندائى أو الصابئة الأقدمين.
(٧) راجع ابن النديم فى الفهرست، ص ٤٧٧.

ونجد أن هذه التسمية مناسبة لشعائرهم التى تقضى بالاغتسال فى الماء الجارى وفى التعميد وأيضاً مناسب لإقامتهم حيث إنهم كانوا يلازمون شواطئ الأنهار فى العراق وإيران وغيرهما من البلدان.

ويرى العالم اللغوى "جستنيوس" أن كلمة صابئ مشتقة من "صباؤت" العبرية بمعنى "جنة السماء" دلالة على أنهم يعبدون الكواكب.

ويذكر الأب "انستاس الكرملى" أن الصابئة مشتقة من صبأ وهى لفظة قديمة ومصحفة عن "ضوأ " وقد قلبها العرب فى لغتهم إلى كلمة "ضاء" وعبادة الصابئة تعنى عبادة الضوئية أى الأجرام السماوية ومثل ضاء صبأ ومثل أضاء أصبه[١].

ومن كل ما سبق نلاحظ تعدد معانى كلمة الصابئة ولا يوجد اتفاق على معنى واحد لها.

كما نجد أيضاً تعدد الآراء حول نسبة الصابئة وتاريخهم فالإمام الرازى يرجع تاريخ الصابئة إلى أيام بعثة سيدنا إبراهيم عليه السلام فيقول: "ولما بعث الله إبراهيم عليه السلام كان الناس على دين الصابئة"[٢].

بينما نجد الإمام الشهرستانى[٣] ينسبهم إلى عاديمون وهرمس اللذين يعتقد أنهما شيث وإدريس عليهما السلام أما الإمام "المقدس"[٤] فينسب مذهب الصابئة إلى بوداسف ويقول عنه أن بوداسف كان من أهل الحقيقة وكان عالماً بالأدوار والأكوار.

ويذكر عنه البيرونى[٥] أنه قد ظهر عند مضى سنه من ملك طمهورث بأرض الهند وأتى بالكتابة الفارسية ودعا إلى ملة الصابئين فاتبعه خلق كثير.

ومما سبق يتبين أن الصابئة أقدم المذاهب فكراً وهو من أقدم الديانات كما نلاحظ أن الاختلاف فى نسبتها وتاريخها يشير إلى اختلاف طوائف الصابئة التى سنعرض لها فيما بعد وبناءً على ذلك نقول إن

---

(١) راجع غضبان رومى الصابئة، ص ٤٥.
(٢) راجع الرازى، اعتقادات فرق المسلمين والمشركين، ص ١٤٣.
(٣) راجع الشهرستانى، الملل والنحل، جـ٢، ص٤.
(٤) راجع المقدس البدء والتاريخ، جـ٢، ص ٩٧، ٩٨.
(٥) راجع البيرونى فى الآثار الباقية، ص ٢٠٣.

الصابئة موجودة منذ عهد قديم قبل الإسلام ولقد ورد ذكرها فى القرآن الكريم فى ثلاث مواضع:

١- قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (البقرة:٦٢)

٢- قوله تعالى: ﴿إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئون والنصارى من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ (المائدة:٦٩)

٣- قوله تعالى: ﴿إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى والمجوس والذين أشركوا إن الله يفصل بينهم يوم القيامة إن الله على كل شيء شهيد﴾ (الحج:١٧)

ونلاحظ أن القرآن فى هذه الآيات الثلاث يشير إلى نوعين من الصابئة – صابئة حنفاء موجودون وصابئة مشركون فأثنى الله تعالى على من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا من هذه الملل الأربع المؤمنين – اليهود – النصارى –الصابئة فهؤلاء الصابئة كانوا يدينون بالتوراة قبل النسخ والتبديل وكذلك الذين دانوا بالإنجيل قبل التحريف والتبديل والصابئون الذين كانوا قبل هؤلاء كالمتبعين لملة إبراهيم عليه السلام وهم الحنفاء.

أما الصابئة المشركون فقد ذكرهم الله تعالى بين الملل الأربع الذين سيفصل بينهم وبين المؤمنين يوم القيامة كما يقول ابن تيمية[1].

هذا وقد اختلفت آراء العلماء والمفسرين حول مذهب الصابئة وقد جمعها "ابن الجوزى" فى عشرة أقوال هى:

١- أنهم قوم بين النصارى والمجوس.
٢- أنهم بين اليهود والمجوس.
٣- أنهم قوم بين اليهود والنصارى.
٤- أنهم صنف من النصارى.
٥- أنهم قوم من المشركين لا كتاب لهم.
٦- أنهم من المجوس

(١) راجع ابن تيمية فى الرد على المنطقيين، ص ٢٨٧، ص ٢٨٨.

٧- أنهم فرقة من أهل الكتاب يقرءون الزبور.
٨- أنهم قوم يصلون إلى القبلة ويعبدون الملائكة ويقرءون الزبور.
٩- أنهم طائفة من أهل الكتاب.
١٠- أنهم كانوا يقولون لا إله إلا الله وليس لهم عمل ولا كتاب ولا نبى إلا قول لا إله إلا الله[1].

ويذكر الإمام "السيوطى" أن النبى إدريس دعا الخلق إلى الله تعالى فأجابوه وكانت عقيدة الصابئة هى توحيد الله تعالى والطهارة والصوم وغير ذلك.

ويذكر الإمام أبو حنيفة أنهم ليسوا بعبدة أوثان وإنما هم موحدون يعتقدون تأثير النجوم.

ومما سبق نستطيع القول إن هذه الاختلافات فى مذهب الصابئة تشير إلى مدى صعوبة مذهبهم أو تعريفه بدقة مما يدل على أنه لم يكن هناك مذهب واحد لهم كما لم يكونوا طائفة واحدة بل عدة طوائف.

طوائف الصابئة أو أقسام الصابئة

لم تكن الصابئة كما قلنا طائفة واحدة ولم يكن لها مذهب واحد وفيما يلى سنذكر طوائفهم الأساسية وهى:

١- أصحاب الروحانيات.
٢- أصحاب الهياكل والأشخاص.
٣- صابئة حران.
٤- الصابئة المندائيون.

وسأتحدث عن فرق الصابئة الأقدمون الثلاث بشئ من الإيجاز ثم أفصل القول فى الفرقة الرابعة وهى الصابئة المندائية باعتبارها الفرقة الوحيدة التى لها وجود إلى يومنا هذا والتى هى مقصود هذا البحث.

أولاً – أصحاب الروحانيات

ويقوم مذهب هؤلاء على أن للعالم صانعاً فاطراً حكيماً مقدساً عن سمات الحدوث والواجب علينا معرفة العجز عن الوصول إلى جلاله

(١) راجع ابن الجوزى – تلبيس إبليس، ص ٧٤، وانظر أيضاً الماتريدى – تأويلات أهل السنة، ص ٩٣، البيضاوى أنوار التنزيل، جـ١، ص ٦٠، الزمخشرى الكشاف، ص ٢٨٥، ابن تيمية فى الرد على المنطقيين، ص ٤٥٥ : ٤٥٧، كتاب مندائى الصابئة الاقدمين حيث ذكر رأى السيوطى والإمام أبو حنيفة، ص ٦، ٧.

وإنما يتقرب إليه بالمتوسطات المقربين لديه وهم الروحانيون المطهرون المقدسون جوهرا وفعلا وحالة.

ومعنى المقدسون جوهرا أى المقدسون عن المواد الجسمانية المبرؤون عن القوى الجسمانية المنزهون عن الحركات المكانية والتغييرات الزمانية قد جبلوا على الطهارة وفطروا على التقديس والتسبيح[١] ومن هنا تظهر التعاليم الأخلاقية عند الصابئة فى ضرورة تطهير نفوسنا عن دنس الشهوات الطبيعية وتطهير أخلاقنا عن علائق القوى الشهوانية والغضبية حتى تحصل مناسبة ما بيننا وبين الروحانيات فحينئذ نسأل حاجتنا منهم ونعرض أحوالنا عليهم ونصبوا فى جميع أمورنا إليهم فيشفعون لنا إلى خالقنا وخالقهم ورازقنا ورازقهم[٢].

ونجد أن هذا التطهير كما يذكر الشهرستانى يحصل عند الصابئة بالاكتساب والرياضة وليس بالفطرة فيقول: "وهذا التهذيب والتطهير ليس يحصل إلا باكتسابنا ورياضتنا وفطامنا أنفسنا عن دنيات الشهوات"[٣].

كما يذكر الشهرستانى[٤] أن الطريق الذى يسلكه الصابئة فى ذلك هو التضرع والابتهال بالدعوات وإقامة الصلوات وبذل الزكاة والصيام عن المطعومات والمشروبات وتقريب القرابين والذبائح وتبخير البخورات وتعزيم العزائم.

وثمرة هذا الطريق عند الصابئة هو الاتصال بالروحانى فيحصل لنفوسنا استعداد واستمداد من غير واسطة بل يكون حكمنا وحكم من يدعى النبوة على وتيرة واحدة[٥].

وبناء على هذا فلا حاجة لهم إلى الأنبياء فهم بذلك ينكرون النبوة؛ لأنه باستطاعة كل إنسان إذا خلصت نفسه عن الحسن أن يكون فى حكم النبى ولذلك ينقل عنهم الشهرستانى[٦] قولهم: "والأنبياء أمثالنا فى النوع وأشكالنا فى الصورة يشاركوننا فى المادة يأكلون مما نأكل ويشربون مما نشرب ويسامونا فى الصورة أناس بشر مثلنا فمن أين لنا طاعتهم وبأية

---

(١) راجع الشهرستانى الملل والنحل، ص٧.
(٢) نفس المرجع ونفس الصفحة.
(٣) نفس المرجع ص ٨.
(٤) نفس المرجع ونفس الصفحة.
(٥) نفس المرجع، ص ٨، ٩.
(٦) راع الشهرستانى، الملل والنحل، جـ٢، ص٨.

مزية لهم لزمت متابعتهم ويحكى القرآن مقالتهم ﴿وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَراً مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذاً لَخَاسِرُونَ﴾ (المؤمنون:٣٤)

أما كون الروحانيون مقدسون فعلاً فلأنهم قالوا: إن الروحانيات هم الأسباب المتوسطون فى الاختراع والإيجاد وتصريف الأمور من حال إلى حال وتوجيه المخلوقات من مبدأ إلى كمال ويستمدون القوة من الحضرة القدسية ويفيضون الفيض على الموجودات السفلية فمنها مدبرات الكواكب السبعة السيارة فى أفلاكها وهى هياكلها فلكل روحانى هيكل ولكل هيكل فلك ونسبة الروحانى إلى ذلك الهيكل المختص به نسبة الروح إلى الجسد فهو ربه ومدبره ففعل الروحانيات تحركها على قدر مخصوص ليحصل من حركاتها انفعالات فى الطبائع والعناصر فيحصل من ذلك تركيبات وامتزاجات فى المركبات فيتبعها قوى جسمانية ويركب عليها نفوس روحانية مثل أنواع النبات والحيوان ثم تكون التأثيرات كلية صادرة عن روحانى "كلى" وقد تكون جزئية صادرة عن روحانى "جزئى" فمع جنس المطر ملك ومع كل قطرة ملك ومنها مدبرات الآثار العلوية الظاهرة فى الجو مما يصعد من الأرض فينزل الأمطار والثلوج والبرد والرياح وينزل من السماء مثل الصواعق والشهب وما يحدث فى الجو من الرعد والبرق والسحاب والضباب وما يحدث فى الأرض من الزلازل ومنها متوسطات القوى السارية فى جميع الموجودات ومدبرات الهداية الشائعة فى جميع الكائنات حتى لا نرى موجوداً خالياً عن قوة وهداية إذا كان قابلاً لها.

ويتبين مما سبق أن هذه الطائفة من الصابئة لا تقول بالخلق المباشر لله تعالى لهذا العالم وما فيه من أحداث بل ينسبون الاختراع والإيجاد لله تعالى عن طريق ملك المتوسطات الروحانية وهى الكواكب والنجوم.

ومن هنا اختلفت الآراء والأقوال بخصوص هذه الكواكب والنجوم: فمن قائل إنهم يعبدونها ومن قائل إنهم يعظمونها وعلى كل فإنهم ينسبون إليها فاعلية ودوراً مهماً فى عملية الخلق والتدبير ويوكلون إليها عملية تدبير أمر العالم الطبيعى وما يحدث فيه وأيضاً العالم الإنسانى وما يحدث فيه من سعادة أو شقاوة.

وبناءً على هذا فإنه يمكننا القول عنهم إنهم يقولون بوجود الله تعالى وبتأثير النجوم معاً.

أما كون الروحانيون مقدسون من ناحية الأحوال فأحوال الروحانيات من الروح والريحان والنعمة واللذة والراحة والبهجة والسرور فى جوار رب الأرباب ثم طعامهم وشرابهم التسبيح والتقديس والتهليل والتمجيد وأنسهم بذكر الله تعالى وطاعته فمن قائم وراكع ومن ساجد ومن قاعد لا يريد تبديل حالته لما هو فيه من البهجة واللذة ومن خاشع بصره لا يرفع ومن ناظر لا يغمض ومن كروبى فى عالم القبض ومن روحانى فى عالم البسط لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون[١].

ويذكر الشهرستانى أصحاب الروحانيات فى مقابل الحنفاء أتباع ملة إبراهيم عليه السلام وقد أورد كثيرا من المناظرات بينهما ويمكن أن يقال إن الفرق بينهما هو إنكار أصحاب الروحانيات البشرية النبى أو الرسول وهم يعتقدون بمتوسط روحانى للهداية والتعليم؛ لأن الله لا يخاطب أحدا من البشر فى اعتقادهم فخلق الروحانيات وهم الملائكة ثم تلبست هذه الروحانيات بالكواكب النورانية أما الحنفاء فيدركون معرفة الله تعالى ومعرفة طاعته عن طريق من بعثهم الله من عباده للإصلاح والهداية والبشارة والنذارة قال تعالى: ﴿رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل﴾ (النساء: من الآية١٦٥) فالروحانيون يفارقون الحنفاء أيضا لقولهم بوسائط الكواكب لروحانيتها ونورانيتها[٢].

وخلاصة القول إن أصحاب الروحانيات وهم الطائفة الأولى من الصابئة قد أخذوا جانبا من الدين الذى جاء به سيدنا إبراهيم عليه السلام من الله تعالى وأعرضوا عن جانب آخر منه وأخذوا أيضا جانبا من الفكر الصابئ ولذلك أطلق عليهم حنفاء ولإقرارهم بالله تعالى أطلق عليهم موحدة إلا أن توحيدهم لم يكن خالصا؛ لأنهم خلطوه بالفكر الصابئ وفضلا عن ذلك فلقد أنكروا النبوة.

٢- الطائفة الثانية من طوائف الصابئة وهم

أصحاب الهياكل والأشخاص وهؤلاء يقولون إن لكل روحانى من الروحانيات العلوية هيكلا أعنى جرما من الأجرام السماوية هو هيكله ونسبته إلى الروحانى المختص به نسبة أبداننا إلى أروحنا فيكون هو مدبره والمتصرف فيه ومن جملتها السيارات والثوابت.

(١) راجع الشهرستانى، الملل والنحل، جـ٢، ص٩.
(٢) راجع غضبان رومى الصابئة، ص ٥٨.

ويذكرهم الإمام الشهرستانى[١] بقوله: "اعلم أن أصحاب الروحانيات لما عرفوا أنه لابد للإنسان من متوسط ولابد للمتوسط من أن يرى فيتوجه إليه ويتقرب به ويستفاد منه فزعوا إلى الهياكل التى هى السيارات السبع فتعرفوا أولا بيوتها ومنازلها وثانيا مطالعها ومغاربها وثالثا اتصالاتها على أشكال الموافقة والمخالفة مرتبة على طبائعها ورابعا تقسيم الأيام والليالى والساعات عليها وخامسا تقدير الصورة والأشخاص والأقاليم والأمصار عليها فعملوا الخواتيم وتعلموا العزائم والدعوات وكانوا يسمونها أربابا والله تعالى هو رب الأرباب وإله الآلهة ومنهم من جعل الشم إله الآلهة ورب الأرباب وكانوا يتقربون إلى الهياكل تقربا إلى الروحانيات ويتقربون إلى الروحانيات تقربا إلى البارئ تعالى لاعتقادهم أن الهياكل أبدان الروحانيات ونسبتها إلى أجسادنا نسبة أجسادنا إلى أرواحنا.

أما أصحاب الأشخاص فهم كما يذكرهم الشهرستانى "إذا كان لابد من متوسط يتوسل به وشفيع يتشفع إليه والروحانيات وإن كانت هى الوسائل لكننا إذا لم نرها بالأبصار ولم نخاطبها بالألسن لم يتحقق التقرب إليها إلا بهياكلها ولكن الهياكل قد ترى فى وقت ولا ترى فى وقت آخر؛ لأن لها طلوعا وأفولا وظهورا بالليل وخفاء بالنهار فلم يصف لنا التقرب بها ولا التوجه إليها فلا بد لنا من صور وأشخاص موجودة قائمة منصوبة نصب أعيننا نعكف عليها ونتوسل بها إلى الهياكل فنتقرب بها إلى الروحانيات ونتقرب بالروحانيات إلى الله تعالى فنعبدهم ليقربونا إلى الله زلفى ومن أجل ذلك اتخذوا أصناما "أشخاصا" على مثال الهياكل السبعة كل شخص فى مقابلة هيكل وراعوا فى ذلك جوهر الهيكل أى الجوهر الخاص به وكانوا يسألونهم قضاء حاجاتهم مراعين فى ذلك بعض الطقوس والشعائر وهؤلاء هم أصحاب الأشخاص وهم عبدة الأوثان.

وهؤلاء هم الصابئة المشركون الذين قالوا عن عبادتهم للكواكب ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى وهذا الانحدار فى اعتقاد الصابئة ينسب إلى بوداسف كما يقول أستاذنا الدكتور إبراهيم الفيومى[٢] حيث ذكر أن هذا الرجل "بوداسف" نقل تراثه الهندى الذى يفيض بالتجسيم والتشبيه ودعوته الحافلة بألوان من الوثنية والشرك والزندقة إلى فارس حيث دعا

(١) راجع الشهرستانى، ص ٥٢، ٥٣ فى الملل والنحل، جـ٢.
(٢) راجع د/ محمد إبراهيم الفيومى، فى الفكر الجاهلى، ص ١٤٤.

إلى ملة الصابئين واتبعه خلق كثير وأحيا بينهم عبادة الأصنام والسجود لها.

فهذه الصابئة صابئة مشركة خالفوا الصابئة الأولى فى توحيدها وإنزال الوسيط معبودا وجعله غاية وليس وسيلة وفارقوا الحقيقة فى وحيها السماوى واتبعوا وثنية بوداسف الهندية ولقد ترتب على هذا الاتجاه الدينى نحو عبادة الكواكب أن تسربت الوثنية إلى الدين وأخلاط من الشرك.

٣- صابئة حران

وهم ينسبون إلى مدينة حران التى اكتسبت شهرة تاريخية فإنها كانت مركزا للثقافة اليونانية ولقد قامت فيها دراسات رياضية وفلسفية وطبيعية وفلكية ولقد ساهمت بدور كبير فى الترجمة فى العصر الإسلامى وساهمت مساهمة فعالة فى نقل العلوم الأجنبية إلى العلوم العربية.

ويذكر "ابن النديم"[١] قصة تسميتهم بهذا الاسم قائلا "لقد تسموا بهذا الاسم أيام المأمون فى سفره إلى بلاد الروم فقد توعدهم إن لم يدخلوا فى دين الإسلام ويدينوا بدين نص عليه القرآن ليقتلنهم وأمهلهم لحين رجوعه من سفره فأشار عليهم شيخ فقيه من أهل حران أن يتسموا باسم الصابئة إذ إنه من الأديان التى ذكرها القرآن فمنهم من انتحل اسم الصابئة، وأسلم منهم قوم وتنصر آخرون ولما جاءهم خبر وفاة المأمون رجعوا إلى الحرانية إلا من أسلم منهم فلم يمكنه الارتداد عن الإسلام فأقاموا متسترين بالإسلام فكانوا يتزوجون نساء حرانيات ويجعلون الذكر مسلما والأنثى حرانية ويذكر أنه لم يكن بحران قوم يسمون بالصابئة قبل ذلك.

ويمكننا أن نستخلص من قول ابن النديم السابق أنه لا وجود للصابئة فى حران قبل عصر المأمون وأنهم سموا بهذا الاسم لينجوا من عذاب المأمون لهم.

لكننا نجد أن القاضى عبد الجبار[٢] يذكر أن صابئة أهل حران كانوا على دين شيث وأنه المبعوث إليهم وفى أيديهم كتابه الذى أنزله الله عليه وكان قد فقد فى أيام الطوفان فجاءهم نوح به على أنه حفظه لا على أنه أنزل عليه.

---

(١) راجع ابن النديم فى الفهرست، ص ٤٤٥، ٤٤٦.
(٢) راجع القاضى عبد الجبار المغنى، جـ٥، ص ١٥٧.

ويذكر ابن تيمية[١] أن حران كانت دار الصابئة ولد فيها إبراهيم عليه السلام، أو انتقل إليها على اختلاف القولين وقد كان دينهم قبل ظهور النصرانية وقبل ظهور الإسلام وأنهم ظلوا على دينهم.

ومن كلام ابن تيمية السابق يتبين لنا وجود الصابئةبحران من قبل ظهور الإسلام بزمن بعيد وأنهم تسموا باسم موطنهم فيقال لهم الصابئة الحرنانيين.

ويذكر الشهرستانى[٢] مقالاتهم بقوله :"قالوا: إن الصانع المعبود واحد وكثيرا أما واحد ففى الذات والأول والأصل والأزل وأما كثير فلأنه يتكثر بالأشخاص فى رأى العين وهى المدبرات السبعة والأشخاص الأرضية الخيرة العالمة الفاضلة فإنه يظهر بها ويتشخص بأشخاصها ولا تبطل وحدته فى ذاته.

ويذكر أيضا أن معنى البعث عندهم هو أن الله ينهى دورا من دورات الحياة؛ لأنه على رأس كل سنة وثلاثين ألف سنة وأربعمائة وخمس وعشرين سنة يحدث زوجين من أجناس الحيوانات ذكرا أو أنثى من الإنسان وغيره فيبقى ذلك النوع تلك المدة ثم إذا انقضى الدور بتمامه انقطعت الأنواع نسلها وتوالدها فيبتدئ دور آخر ويحدث قرن آخر من الحيوان والإنسان والنبات وكذلك أبد الدهر وقالوا: وهذه هى القيامة الموعودة على لسان الأنبياء عليهم السلام وهم الذين أخبر الله عنهم بهذه المقالة فى كتابه الكريم فقال عنهم: ﴿وقالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر﴾ (الجاثية: من الآية٢٤) وقوله : ﴿أيعدكم أنكم إذا متم وكنتم ترابا وعظاما أنكم مخرجون هيهات هيهات لما توعدون﴾ (المؤمنون: ٣٥،٣٦)

ويذكر الآمدى[٣] أيضا أن من أقوالهم القول بالحلول أى بحلول الإله فى الكواكب السبعة والأشخاص وقد سماهم بالحلولية وذكر أيضا قولهم بالتناسخ فيقول: "هؤلاء زعموا أن الإله المعبود واحد فى ذاته وأنه أبدع أجرام الأفلاك وما فيها من الكواكب وجعل الكواكب مدبرة لما فى

---

(١) راجع ابن تيمية الرد على المنطقيين، ص ٢٨٧.
(٢) راجع الشهرستانى الملل والنحل، جـ٢، ص ٥٨ الباب الثالث الحرنانية.
(٣) نقلا عن كتاب فى الفكر الجاهلى د/ محمد إبراهيم الفيومى هامش ص ١٣٩، وقد ذكر كلا من التناسخ والحلول والقاضى عبد الجبار فى المغنى، جـ٥، ص ١٥٢، وأيضا ابن الجوزى فى تلبيس إبليس، ص ٧٥.

العالم السفلى والله تعالى يظهر فى الكواكب السبعة ويتشخص بأشخاصها من تعدد فى ذاته وقد يظهر أيضا فى الأشخاص الأرضية الخيرة الفاضلة.

وقد ذكر الرازى فى المحصل قولهم بالقدماء الخمسة الله — النفس الهيولى الدهر "الزمن" والفضاء "المكان" وقد أورد أدلتهم على ذلك.

أما قدم البارى تعالى فالدليل عليه مشهور وأما قدم النفس والهيولى فهو بناء على أن كل محدث مسبوق بمادة فقالوا لو كانت النفس حادثة لكانت لها مادة ومادتها إن كانت حادثة افتقرت إلى مادة أخرى لا إلى نهاية ولزم التسلسل وإن كانت قديمة فهو المطلوب وأما الهيولى إن كانت قديمة فهو المطلوب وإن كانت حادثة لزم التسلسل وأما الدهر وهو الزمان فلأنه غير قابل للعدم؛ لأن كل ما يصح عليه العدم كان عدمه بعد وجوده بعدية زمانية فيكون الزمان موجودا حال ما فرض معدوما وهذا محال وأما الفضاء فهو واجب أيضا لذاته والواجب لذاته يمتنع ارتفاعه والفضاء كذلك إذ لو ارتفع لما بقيت الجهات متميزة بحسب الإشارات وذلك غير معقول(١).

تعقيب على صابئة حران

ويتبين لنا من نص الرازى السابق تأثر صابئة حران بالفلسفة وإقامة أدلتهم على أساس عقلى فلسفى وهذا يدل على أن آراءهم أمشاج مختلطة من مذاهب مختلفة منها الفلسفة اليونانية.

وأقول فى النهاية بأن صابئة حران لم يكونوا أحسن حالا من سابقيهم فمع إقرارهم بالله نجدهم أشركوا معه فى الألوهية الكواكب وعبدوها بل أقاموا الهياكل والأصنام لهذه الكواكب وقالوا بحلول الإله فيها وفى الأشخاص وأنكروا المعاد وقالوا بتناسخ الأرواح وقالوا بقدماء مع الله تعالى وكل ذلك يخرجهم عن التوحيد ويدخلهم فى زمرة المشركين.

وإلى هنا أكون قد انتهيت من الحديث عن هذه الطوائف الثلاث من طوائف الصابئة وسوف أتناول فيما يلى الطائفة الرابعة وهى الصابئة المندائيون بشئ من التفصيل.

(١) راجع المحصل للرازى، ص ٨٤.

الصابئة المندائية

أولا — التعريف بهم

تعتبر الصابئة المندائية هى الطائفة الصابئة الوحيدة الباقية إلى اليوم والتى تعتبر يحيى عليه السلام نبيا لها ويقدس أصحابها الكواكب والنجوم ويعظونها ويعتبر الاتجاه نحو نجم القطب وكذلك التعميد فى المياه الجارية من أهم معالم هذه الديانة.

وكلمة "مندائى" تجمع مندائيون وهى مشتقة من كلمة "مندا" الآرمية وتعنى العارف أو الموحد ومن كلمة العارف أخذت كلمة معرفين أو أغنوصين أى الروحانيون والكلمة مأخوذة من "مندا أدهى" وهو أول ملائكة الرب الذى رفع رأسه وكبر بوحدانية الله والصابئة يتخذونه شفيعهم عند ربهم لأنهم أتباعه(١).

هذا وقد أطلق على هذه الطائفة عدة إطلاقات فتارة يسمون بصابئة البطائح نسبة إلى بطائح العراق المشهورة وذلك لأنهم التزموا بالسكن حول الأنهار والمياه الجارية.

وتارة أخرى يطلق عليهم نصارى يحيى وذلك لما تحتله تعاليم يحيى من تقديس لدى هذه الطائفة.

ولقد كثرت الأقوال فى قدم هذه الطائفة فبعض العلماء يرجع تاريخ الصابئة المندائية إلى صابئة حران وبعضهم يذكر أنهم كانوا فى مصر وقتلهم المصريون فخرجوا منها فارين إلى البلاد الفارسية ثم جاء والى العراق فسكنوه إلى اليوم ولذلك نجد فى لغتهم ، الفارسية والعربية من حاول التفرقة بين صابئة حران وبين الصابئة المندائية بل وحاول إثبات أن طائفة الصابئة المندائية هى المشار إليها فى الكتاب العزيز فقال: نحن نؤيد أن يكون هناك أقوام تسموا بالصابئة وهم الأحناف ولكننا نميل إلى أن الذى قصده القرآن من كلمة صابئين إنما هو هذه الطائفة المغتسلة التى كانت تعيش فى جنوب العراق منذ آلاف السنين والتى ما تزال تعيش هنالك إلى يومنا هذا.

والمندائيون وإن كانوا يؤمنون بالله واليوم الآخر إلا أنهم مع ذلك يرون أن الكواكب هى محل الروحانيات.

(١) راجع الصابئة فى حاضرهم وماضيهم، ص ٦٢، غضبان رومى وهو واحد من هذه الطائفة.

وفيما يلى سأتناول معتقدات وطقوس وعادات هذه الطائفة لكى يتبين لنا مدى العلاقة بين طوائف الصابئة المعاصرين والأقدمين وسأتناول:

أولا – كتبهم المقدسة

نقول إذا كانت الكتب المقدسة هى المصدر الوحيد لأديان العالم فإننا نجد الصابئة قد صبغوا كتبهم بالصبغة الدينية فهم يقولون إن كتبهم قد أنزلت على آدم عليه السلام ثم أضيف إليها صحف شيث وإدريس وسام وتعاليم يحيى عليه السلام ومن الكتب المقدسة لديهم:

١ – كتاب الكنزة الكبيرة

بمعنى الكتاب العظيم ويعتقدون أنه صحف آدم عليه السلام ويوجد به موضوعات كثيرة عن نظام تكوين العالم وحساب الخليقة وأدعية وقصص ويقولون عنه أنه كتاب منزل من عالم الأنوار ويشتمل على ذكر تاريخ مبدأ الخليقة البشرية إلى منتهاها وهو مخطوط باللغة السريانية القديمة والمتتبع لهذا الكتاب يجده غير متجانس فهو عبارة عن مجموعة من الفقرات المتناقضة والتنبؤات الكاذبة إذ يتنبأ بأن ملوك الفرس ومنهم الصابئة سيخلفون العرب بعد سبعين سنة.

كما يذكر هذا الكتاب أن الدين الصابئ قد كان زمان موسى عليه السلام دين المصريين إذ يذكر أن من بين أولئك الذين غرقوا قسما كبيرا يدين بالصابئة ولهذا تؤكل كل عام وجبة طقسية فى ذكرى الحملة المصرية التى غرقت فى الماء وهى تتبع اليهود الخبثاء.

وهو بذلك يتفق مع الشهرستانى من أن فرعون وأتباعه وكذا السامرى كانوا صابئة[١].

٢ – كتاب دراشة إديهيا

أى تعاليم يحيى وحياة النبى يحيى عليه السلام وهو كتاب أحدث من الكتاب الأول ويشتمل على بحث فى النجوم والكواكب.

٣ – كتاب "الفلستا"

وهو كتاب عقد الزواج ويتعلق بالاحتفالات والنكاح الشرعى والخطبة.

---

(١) راجع الملل والنحل للشهرستانى، جـ٢، ص٣٦، ٣٧، ط ثانية، مكتبة الأنجلو المصرية.

٤ – كتاب "شدرة إدنشماثا"

وهذا الكتاب يدور حول التعميد والنص والحداد وانتقال الروح من الجسد إلى الأرض ومن هنا إلى عالم الأنوار.

٥ – كتاب "الديونان"

ويشتمل على قصص وسير بعض الروحانيون مع ذكر صور لهم.

٦ – كتاب "سفر ملواشى"

أى سفر الخروج وهو مخطوط لأغراض التنجيم وفيه ذكر للأوراد والأذكار المتنوعة التى يستطيعون من خلالها طرد النوائب وإبعاد الأمراض ومعرفة حوادث السنة المقبلة عن طريق الفلك والتنجيم.

٧ – كتاب "ديوان طقوس التطهير"

وهو يبين طرق التعميد بأنواعه على شكل ديوان().

٨ – كتاب تفسير "بغرة"

وهو مختص بعلم تشريح جسم الإنسان وتركيبه والأطعمة المناسبة لكل طقس.

٩ –كتاب "قماها زهيقل"

ويتألف من مائتى سطر وهو عبارة عن حجاب يعتقدون أن من يحمله لا يؤثر فيه سلاح أو نار.

١٠ – كتاب "حران كويثا"

وهو يتحدث عن حران وعن كيفية قدوم أصحاب يحيى إلى إخوانهم فى حران بعد أن أجلاهم أصحاب عيسى الناصرى من أرضهم وكيف وجدوا إخوانهم الصابئة فى استقبالهم.

وتكمن أهمية هذا الكتاب فى تأكيده للروايات الشفوية التى يتناقلها الصابئون اليوم وهى أنهم هاجروا من موطنهم فى حران إلى موطنهم الحالى فى العراق وإيران[١].

ونجد أن فى هذا الكتاب يرد ذكر سيدنا محمد ﷺ ويعبر عنه تارة بأنه العربى ابن الحرم وأحيانا محمد بن عبد الله ويقص كذلك الفتح

---

(١) راجع فى ذلك الموسوعة الميسرة فى الأديان والمذاهب المعاصرة، طبع الندوة العالمية للشباب الإسلامى، سنة ١٩٧٢م، الرياض، كتاب الصابئة قديما وحديثا، ص ٦٠: ٦٣، كتاب الصابئون المندائيون، ص ١٣، ٤٥، ٤٨.

الإسلامى فى حران وإسلام كثير من الصابئة وحصول الأمان لإتباع الدين الصابئ[١].

وقفة للتعقيب والتعليق

هذه هى أهم الكتب التى تحمل صفة القدسية عندهم والتى ترجمت من الآرامية إلى الألمانية والإنجليزية عن طريق الباحثين ولقد دونوا فيها حوادث تاريخية ودينية مشهورة لكى تأخذ صفة التقديس مثل ذكر قصة آدم وخلقه وموقف إبليس منه وقصة الطوفان وقصة موسى وفرعون مع تحريف هذه الأحداث بما يتفق مع عقيدتهم.

عقائد الصابئة المندائية

أ- عقيدتهم فى الإله

يعتقدون من حيث المبدأ بوجود الإله الخالق الواحد الأزلى الذى لا تناله الحواس ولا يفضى إليه مخلوق وهم فى هذا الاعتقاد يشاركون اعتقاد الموحدين لكنهم يضيفون أشياء أخرى فى اعتقادهم تجعل توحيدهم ليس توحيدا خالصا بل مشوبا بأفكار أسطورية خرافية.

فهم يجعلون بعد الإله ثلاثمائة وستون شخصا خلقوا ليفعلوا أفعال الإله وهؤلاء الأشخاص ليسوا بآلهة ولا ملائكة يعملون كل شئ من رعد وبرق ومطر وشمس وليل ونهار وهم يعرفون الغيب ولكل واحد مملكته فى عالم الأنوار.

وهؤلاء الأشخاص الثلاثمائة والستون ليسوا مخلوقين كبقية المخلوقات الحية ولكن الله ناداهم بأسمائهم فخلقوا وتزوجوا من نساء من صنفهم وجنسهم وتناسلهم بأن يلفظ أحدهم كلمة فتحمل امرأته فورا وتلد واحدا منهم.

وهم يعتقدون أن الكواكب مسكن الملائكة ولذلك يعظمونها ويقدسونها.

ونجد صاحب كتاب "الصابئة" يذكر صفات الله عز وجل ويستبعد ذلك الجانب الأسطورى الذى يعارض التوحيد ويذكر أيضا تحريم الصابئة عبادة الشمس والقمر والنار والكواكب أو حتى تعظيمها وتحريم السحر والتنجيم[٢].

(١) راجع الصابئون فى حاضرهم وماضيهم، ص ٧٠ : ٧٥.
(٢) راجع غضبان رومى الصابئة، ص ٣٧ : ٤١.

ونجد كتاب "مندائى" يذكر اعتقادهم فى النجوم السيارة السبعة ووظيفتها حراسة الأقاليم السبعة "العالم" وتنوير أفكار أهاليها ودفع النحس عنها وجلب الخير إليها[١].

وقفة للتعليق والتعقيب

يتبين لنا مما سبق أنهم يقولون بدور النجوم فى تدبير أمر العالم ويوكلون إليها سعادة وشقاوة الإنسان ونجد أن صاحب كتاب الصابئة يعترف بأنهم يعتقدون بتجسيد عالم الأنوار والملائكة النورانيين أو الأرواح النورانية الذين بواسطتهم يمنح الخالق نعيم النور والصحة والقوة.

عقيدتهم فى النبوة

نجد أن طائفة الصابئة المندائيون يقرون بالنبوة البشرية ويتوقفون فى التفصيل فهم يقولون بنبوة آدم وشيث وإدريس وسام وإبراهيم ويحيى عليهم السلام ويولون إبراهيم ويحيى كثيرا من العناية ويحيكون الكثير من الأساطير حولهما وهم يحرصون على الانتساب إلى إبراهيم عليه السلام وذلك لانتساب جميع الأديان السماوية إليه وإبراهيم ينتمى إلى سام بن نوح ويعتبر سام هو جد الساميين جميعا.

ولقد اهتموا أيضا بيحيى عليه السلام وذكروا ولادته غير الطبيعية وأيضا وفاته وكيفية قبض روحه وذلك كله فى أسلوب أسطورى وذكروا أيضا أوصافه وتربيته ووصاياه وحكمته[٢] إلا أننا نجد أن قصة يحيى فى الكتب المندائية مضطربة إذ هى فى كتاب "حران كويثا" تختلف عنه فى كتاب تعاليم يحيى.

شرائع وعبادات الصابئة المندائية

نجد أن لهذه الطائفة شرائع وأحكام للعبادات تخالف بها شرائع الديانات السماوية الثلاث وأحكامها.

أولا — الصلاة عند المندائيين

يرى الصابئة المندائيون — مثلهم مثل الأقدمين أن المفترض عليهم من الصلاة ثلاث صلوات تؤدى ثلاث مرات فى اليوم قبل الشروق

(١) عبد الحميد بكر كتاب مندالى، ص ٣٢ : ٣٣.
(٢) راجع غضبان رومى الصابئة، ص ٣٠، والفصل الحادى عشر عن إبراهيم الخليل، ص ٧١، وما بعدها والفصل السابع عشر عن النبى يحيى ص ١٤٢ وما بعدها.

وعند الزوال وقبل الغروب وتستحب أن تكون جماعة أيام الآحاد والأعياد وتبدأ بالآذان وهو عبارة عن أذكار تتلى بين الحاضرين ويتوجه المؤذن إلى جهة "الجدى" رافعا يديه ورأسه مع انحناء قليل ثم يتلوا سبع قراءات يمجد فيها الرب ويستمد منه العون طالبا منه تيسير اتصاله بعالم الأنوار[١].

ويفسد الوضوء عندهم عدة أشياء هى:

ما خرج من السبيلين – لمس الحائض والنفساء – اللحم الأجنبى والأكل قبل الصلاة ولا يجوز عندهم الجمع بين صلاتين بوضوء واحد ولو لم ينتقض الوضوء.

ثانيا – الصوم عندهم

لقد سبق القول إن الصابئة عموما يصومون ثلاثين يوما إلا أننا نجد أن الصوم عند المندائيين قد اتخذ مظهرا آخر أشبه بصيام النصارى فنجدهم يمتنعون عن أكل اللحوم لمدة ستة وثلاثون يوما مقسمة بين أيام السنة على نحو امتناع النصارى وكل هذه المتناقضات إنما جاءت من تفرقهم وجهل علمائهم[٢].

ويرون أن الامتناع عن الطعام والشراب والجماع من باب تحريم ما أحل الله وذلك يرجع إلى تحللهم من الشريعة الصابئة وتأثرهم بالنصرانية مع أن الامتناع عن أكل اللحوم لمدة ستة وثلاثون يوما هو كذلك تحريم ما أحله الله تعالى.

هذا ما جاء عنهم فى عبادة الصوم ولم يتيسر لدى الباحثين حتى الآن كما يقول الأستاذ العقاد[٣] كشف الستار عن بواطن كثير من طقوس الصابئة المعاصرين خاصة فيما يتعلق بالصوم وانتقل فيما يلى لبيان :

عقيدة البعث عند المندائيين

نجد أن الصابئة بالنسبة لعقيدة البعث ثلاث طوائف هى:

١- طائفة تذهب إلى إنكار البعث وهم القائلون بالأدوار والأكوار.

٢- طائفة تذهب إلى القول بالمعاد الروحانى وهم أصحاب الروحانيات وكذا الصابئة المندائيون.

---

(١) راجع الصابئة قديما وحديثا، ص٤٢، الصابئون فى حاضرهم وماضيهم، ص ٩٣، الفهرست لابن النديم، ص ٤٤٢.

(٢) الصابئون فى حاضرهم وماضيهم، ص٩، وما بعدها.

(٣) راجع العقاد فى كتابه أبو الأنبياء، ص ٩٦.

٣- طائفة تؤمن بالبعث والمعاد والثواب والعقاب وهم الصابئة الأولى.

ونجد أن الصابئة المندائيون فى قولهم بالمعاد الروحانى يذهبون مذهب الفلاسفة؛ لأن العالم الدنيوى عندهم سجن مؤقت للروح التى ستنبعث بعد الموت من سجنها المادى لتلتحق بالعالم الأعلى وفق حساب عسير يعد لها ووفق ميزان توزن به فإما إلى جنة كما ينبغى لجميع الأرواح التقية الطاهرة أو إلى أن تتطهر من ذنوبها فتلتحق بالعالم العلوى فالروح خالدة والجسم فان[١] وهم لا يؤمنون بالحياة البرزخية فالروح عندهم بعد الموت تنتقل إما إلى عالم النور أو إلى عالم الظلمة.

والعذاب عندهم مهما كان نوعه فهو تطهير للروح وربما يكون بإلباسها شكلا آخر وإظهارها فى جسم يكون وجودها فيه عذابا وشقاء؛ لأنهم يقولون بالتناسخ وهو حلول الروح حسب عملها بجسم آخر بعد مفارقتها البدن ولابد عند الصابئة المندائيين من الغسل وإن كانت العادة عندهم هو غسل الإنسان قبيل خروج روحه من جسده وذلك لاعتقادهم أن الجسم نجس فإذا خرجت الروح وهى طاهرة فلابد وأن تخرج من بدن طاهر ولهذا فعليهم غسل المحتضر وتكفينه قبل خروج روحه وهو فى حالة النزع فإذا مات نجس جسده وحرم لمسه[٢].

ولابد أن يحضر عسله كاهن من درجة "كنزفرا" فيقوم بواجب التعميد والتكفين وهو بمثابة تلقين الموتى عند المسلمين" فيشرع هذا الكاهن فى تلاوة نصوص مستخرجة من الكتاب المقدس يستنزل فيها الرحمة والبركة على روح الميت وتجرى مراسم نقل المتوفى على طريقة أشبه بالطريقة الإسلامية إذ يحيل الجثة أربعة أشخاص من درجة الحلالى يلبسون لباسا خاصا فيقدمون الميت إلى مثواه الأخير بين الصمت والخشوع؛ لأن البكاء والعويل على الميت محرمان[٣].

وإذا عاد المشيعون من دفن الميت اغتسلوا جميعا، ثم يقام المأتم سبعة أيام متتالية كما يقام أيضا يوم السابع والثلاثين والخامس والأربعين[٤].

---

(١) راجع الصابئة المندائيون، ص ١٩ بتصرف.

(٢) راجع الصابئون فى حاضرهم وماضيهم، ص ١١، وما بعدها.

(٣) نفس المرجع، ص ٣٥.

(٤) نفس المصدر، ص ١٣٧.

والصابئة المندائيون يؤمنون بأنه إذا دفن الميت استقبل روحه ملكان فيحاسبانه على أعماله فإن كان من أصحاب الأعمال الحسنة فإن روحه تذهب إلى عالم الأنوار وإن كان من أصحاب الأعمال الشريرة فإن روحه تذهب إلى عالم الظلام وبين العالمين عالم ثالث يسمونه عالم "المطراثى" أى المطهر وفيه تعذب الأرواح التى ارتكبت ذنوبا بسيطة ويكون عذابها لمدة محدودة ثم تنتقل منها إلى مواضعها فى عالم الأنوار[١].

وقفة للتعليق والتعقيب

مما سبق يتبين لنا أن الصابئة المندائيين لا يؤمنون بعذاب القبر ولا نعيمه بل إن من مات عندهم فقد قامت قيامته وأنه يكتفى بسؤال الملكين ليتحدد مصير الإنسان فى العالم الأخروى.

التعميد عند الصابئة المندائيين

وهو عبارة عن إجراء مراسم خاصة يكتسب بها الشئ المعمد صفة دينية فالطفل يطهر والمذنب يكتسب بواسطته الغفران ويجب أن يتم التعميد على أيدى رجال الدين الصابئ وفى حضرتهم والتعميد عند الصابئة المندائيين أعم منه عند النصارى ولمكانة التعميد عندهم أطلق عليهم البعض بأنهم طائفة من النصارى وتحكى الكتب المقدسة المندائية خاصة كتاب "حران كويثا" أن أصحاب يوحنا المعمدان الذين فروا إلى حران بسبب ما لحق بهم من أذى فى أورشليم قد اختلطوا بإخوانهم فى حران من الصابئة.

والتعميد يكون باسم الله ومندای - وهو ملك من الملائكة ويوحنا[٢] من هنا يظهر لنا كيفية انتقال الأفكار المسيحية إلى الدين الصابئ وخاصة التعميد بصورته الحالية وكذا تعظيم يوم الأحد.

أنواع التعميد عندهم

ينحصر التعميد عندهم فى أربعة أنواع

١- عماد الولادة

وهو يعنى أن المولود إذا بلغ خمسا وأربعين يوما يعمد بمعنى أن الكاهن يدخل هذا الوليد فى الماء الجارى إلى ركبتيه مع اتجاهه إلى جهة

(١) راجع العقاد، ص ٩٥.

(٢) راجع الصابئون فى حاضرهم وماضيهم، ص ٥٨، ويظهر فى ذلك الأثر النصرانى الذى يكون التعميد فيه باسم الأب والابن والروح القدس.

القطب الشمالى ليصبح طاهرا من دنس الولادة وبعد أن يصلى عليه الكاهن صلاة طويلة يصبح بعدها الطفل معمد[١].

٢- عماد الزواج

ويتم هذا النوع من التعميد فى يوم الأحد وبحضور كاهن يسمونه "ترميد أوكنزابرا" ويتم بثلاث دفعات فى الماء مع قرار من كتاب "الفلستا" ويتم بلباس خاص ثم يشربان من قنينة تكون قد ملئت بإناء أخذ من النهر ثم يطعمان ويدهن جبينها بدهن السمسم ويكون ذلك لكلا العروسين بعد ذلك لا يلمسان لمدة سبعة أيام حيث يكونان نجسين وبعد الأيام السبعة يعمدان من جديد وتعمد معهما كافة القدور والأوانى التى أكلا منها أو شربا منها[٢].

٣- عماد الجماعة

وهو فرض على كل صابئ ذكرا كان أم أنثى وذلك فى عيد لهم يسمى عيد "البنجه" يظل خمسة أيام ويقصد من هذا العيد التكفير عن الذنوب والخطايا التى يكون الصابئ قد ارتكبها طوال العام[٣].

٤- عماد الأعياد

نجد أن الشريعة الصابئية حتمت على كل صابئ أن يتعمد ولو مرة واحدة فى حياته هذا بالنسبة للفرد العادى أما الكهنة فعليهم أن يتعمدوا فى كل عيد عند حلوله.

والصابئة المندائيون يلجأون إلى الماء فى الحالات الآتية:

أ- الرشاحة: وهى الوضوء ليؤدوا فريضة الصلاة.

ب- الطماشة: وهى الطهارة بالارتماس فى الماء الجاى ثلاث مرات متتالية دون الاستعانة وهذه الطهارة واجبة على الحائض - النفساء - الجنب - من لمس أحد من هؤلاء أو ساهم فى دفن ميت - أو خرج من سجن - أو شفى من مرض وجب عليه أن يطمس فى الماء الجارى سواء أكان الوقت صيفا أم شتاء[٤].

(١) نفس المرجع، ص ٩٧.

(٢) راجع الموسوعة الميسرة، ص ٣٢٢.

(٣) الصابئون فى حاضرهم وماضيهم، ص ١١١، وما بعدها.

(٤) الصابئة قديما وحديثا، ص ٥٥، ولما كانت الصابئة قد تفرقت فى المدن والقرى التى استوطنوها ولما لم يتوفر الماء الجارى فقد أجازوا الاستحمام فى مياه العيون والآبار وغيرها.

ما يحرم على المندائيين

لقد تحلل الصابئة المعاصرون عن كثير من أصول الديانة الصابئية القديمة فالجمع بين امرأتين لم يعد يتقيد به المندائيون فقد أصبحوا يتزوجون مثنى وثلاث ورباع مادام الصابئ فى قدرته العدل فيما بين زوجاته وكذلك توسع الصابئة فى أسباب الطلاق وذلك يرجع لمجاورتهم للمسلمين وتحلل الصابئون المعاصرون عن أصول الديانة الصابئية.

وكذا يحرم عليهم أمور قد اتفقت كل الأديان على تحريمها مثل القتل - القتال - إلا فى حالة الدفاع عن النفس - الزنا - اللواط - الخمر - الميسر.

وكذا يحرم عليهم الاختتان مثل سلفهم والحلف وإن كان صدقا ومؤاكلة أصحاب الأديان الأخرى.

وكذا فعل أى شئ قبل الاغتسال من الجنابة وكذا يحرم عليهم قطع الطريق ولبس الثياب الزرقاء وشهادة الزور والاشتغال فى الأعياد وفى يوم الأحد والربا وربحه وأكل لحم كل ذى ذنب.

ونجد أن هذه المحرمات لا يلتزم بها الآن إلا رجال الدين فقط أما عامة الصابئة فقد تحرروا من ذلك كما تحرروا من أكثر الأمور الدينية.

تعقيب

من خلال تناولنا لأهم معالم الصابئة الموجودون فى العصر الحاضر والذين يسمون بالصابئة المندائيون نلاحظ أن هذه الطائفة تحمل فى طياتها أمشاج من كل دين اتصلت به كما نلاحظ أنهم يدينون بقسم كبير من عقائد الأقدمين من مثل الاعتقاد فى الكواكب وأنها محل الروحانيات وتشددهم فى الاغتسال وعدد الصلاة المفروضة وأوقاتها...إلخ.

ثم نراهم يشتركون مع اليهود فى أمور منها شروط رجال الدين عندهم كما أن ذبائحهم كذبائح اليهود.

كما نلاحظ أنهم يشتركون مع النصارى فى بعض الشعائر مثل تعظيم يوم الأحد والتعميد إلا أن التعميد عندهم أعم من النصارى كما نلاحظ أن الصابئة المندائيين لديهم كثير من القضايا الإسلامية وهذه العقائد قد انتقلت إليهم عن طريق المجاورة والمعايشة للمسلمين وذلك مثل أحكام المواريث وأكثر الأحكام الفقهية فى الزواج والطلاق وعدد الزوجات وكذا سؤال الملكين فى القبر.

ونجد أن تشابه بعض شعائر هذه الطائفة مع بعض شعائر المسيحية واليهودية والإسلام أمر طبيعى لتجاورهم وتعايشهم مع هذه الأديان فمن المحتمل أن يكونوا قد تأثروا بها كما يحتمل أن تكون قد تأثرت بهم أيضا.

وهذا يشير إلى أن الصابئة المندائية أصبحوا أكثر تحررا من ذى قبل ولذلك كان تأثرهم بغيرهم أكثر من تأثيرهم فى غيرهم وهذا ما يجعل الباحث فى حيرة من أمر هذه الطائفة لأنهم كيف يكتمون أسرارهم ويعدون البوح بها ذنبا كبيرا وإثما عظيما ثم نراهم بعد ذلك يأخذون من غيرهم بعض قضاياهم الفقهية وهم على أى فرض طائفة منزوية على نفسها لها حياتها الخاصة ولذلك فإننا نجد أن عددها أخذ فى الانحدار كما يقول العقاد[1] وهذا ينبئ أن الديانة الصبائية عما قريب ستكون فى طور النسيان هذا من ناحية.

ومن ناحية أخرى فإن أكثر الشباب الصابئ أصبح يقبل على الإسلام بصورة أكثر من ذى قبل.

مما يشير إلى أنهم سوف تنقرض ديانتهم من الوجود ولا يبقى لها إلا الذكر التاريخى.

وختاما أقول إن دراسة فرقة كهذه مهمة جدا وذلك لالتقاء التوحيد والشرك فيها ولقد نوه القرآن الكريم بهذه الفرقة وذكرها أكثر من مرة كما ذكرنا من قبل.

كما أن دراسة هذه الفرقة يعد بمثابة تفنيد لآراء المستشرقين الذين يزعمون أن الأصل فى الدين هو التعدد وأن التوحيد إنما كان مرحلة تالية للتعدد.

كما تكمن أهمية دراسة هذه الفرقة فى بيان تأكيد الفكرة القرآنية القائلة إن الناس كانوا أمة واحدة وأن الشرك طارئ على التوحيد وليس العكس.

كما أن فى ذكر القرآن لهذه الفرقة دليل على أنها كانت معروفة لدى العرب فى جاهليتهم.

وإلى هنا أكون قد فرغت من هذا البحث
والله الموفق والهادى إلى سواء السبيل

---

(١) انظر كتاب العقاد - أبو الأنبياء، ص ٩٢، وانظر أيضا الصابئون فى حاضرهم وماضيهم، ص ١٢٤.

المـــراجـــع

١- القرآن الكريم
٢- ابن تيمية - الرد على المنطقيين - دار المعرفة للطباعة والنشر لبنان.
٣- ابن الجوزى تلبيس إبليس - دار الكتب العلمية، بيروت.
٤- ابن حزم - الفصل فى الملل والأهواء والنحل - دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت.
٥- ابن بكر "عبد الحميد" كتاب مندائى أو الصابئة الأقدمين - مكتبة التراث، بغداد، طبعة أولى، سنة ١٩٢٧م.
٦- أبو الحسن الأشعرى، مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد، النهضة المصرية، ١٩٦٩م.
٧- أبو منصور الماتريدى، تأويلات أهل السنة،تحقيق جاسم محمد، مطبعة الإرشاد بغداد.
٨- البيضاوى أنوار التنزيل وأسرار التأويل، مطبعة مصطفى البابى الحلبى، طبعة ثانية، ١٩٦٨م.
٩- البيرونى، الآثار الباقية، م المثنى، بغداد.
١٠- الفيروز آبادى، القاموس المحيط، مطبعة عيسى الحلبى، طبعة ثانية، ١٩٥٢م.
١١- الفيومى، د/ إبراهيم فى الفكر الجاهلى، دار العلم، ١٩٨٠م.
١٢- المقدس "البدء والتاريخ"، طبعة ١٩٠١ وقد ينسب لزيد البلخى.
١٣- عبد الجبار "القاضى" المغنى فى أبواب التوحيد والعدل، مطبعة دار الكتب المصرية ١٣٨٢م، ١٩٦٢م، أسرار د/ طه حسين، إبراهيم مدكور.
١٤- الموسوعة الميسرة فى الأديان والمذاهب المعاصرة، ط الندوة العالمية للشباب الإسلامى، الرياض، ١٩٧٢م.
١٥- محمود بن عمر الزمخشرى، الكشاف، مطبعة الآستانة بالقاهرة، ١٩٥٣م.
١٦- الرازى المتوفى ٦٠٤هـ المحصل ، ط م الكليات الأزهرية.
١٧- غضبان رومى، الصابئة فى حاضرهم وماضيهم، طبعة العرفان، صيدا، لبنان.

١٨- الصابئة المندائيون، مطبعة الإرشاد، بغداد، ١٩٦٩، ترجمة نعيم بدوى وغضبان.
١٩- الأستاذ العقاد أبو الأنبياء، ط دار الكتاب اللبنانى، بيروت.
٢٠- ابن النديم، الفهرست، دار المعرفة للطباعة والنشر بيروت.
٢١- ابن العبرى تاريخ مختصر الدول، بدون ط.
٢٢- الملل والنحل للشهرستانى، ط ثانية، تخريج محمد فتح الله بدران، نشر مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة.